JOURNAL of ARCHAEOLOGY & TOURISM

P-ISSN: 2812-6378 ONLINE-ISSN: 2812-6386
Journal Home Page: https://jatmust.journals.ekb.eg/

نشأة البازيليكا المزدوجة وإشكاليات الوظيفة

| Received March 11th 2022 | Accepted May 9th 2022 | Available online August 7th 2022 |
| DOI 10.21608/jatmust.2022.253381 |

أحمد أمين

قسم الآثار الإسلامية
جامعة مصر للعلوم والتكنولجيا
6 أكتوبر، مصر
Ahmed.ameen@must.edu.eg

الملخص

ظهرت الكتائس ذات التخطيط المعروف بالبازيليكا المزدوجة فى فترة مبكرة بعد مرسوم ميلان (بعد سنة 313م)، ثم انتشرت فى القرنين 4–5م بصفة خاصة فى أوربا، وتبرز الكنيسة المزدوجة ككيان معمارى متمايز عن غيره من المجموعات المعمارية الدينية المسيحية الأخرى. وتمثل البازيليكا–المزدوجة كنيستين أو بنائين متوازيين على امتداد محورهما الطولى، وكل من البنائين ذا تخطيط بازيليكى، وقد يفصل بينهما مساحة بنائية أو ممر ضيق، وقد يضاف للأخير معمودية أو زاوية صغيرة. أخذ هذا النمط فى الاختفاء مع القرن 7م، ثم عاد للظهور مرة أخرى فترة العصور الوسطى مع الفن الرومانسكى والقوطى. وتمثل وظيفة الكنيستين المتوازيتين القريبتين واستخدام كل منهما إشكالية خاصة فى الكنائس المبكرة التى تعود للقرنين الرابع والخامس. وتناقش هذه الورقة إشكالية الوظيفة فى البازيليكا–المزدوجة فى ضوء دراسة بعض النماذج المبكرة (ق 4– 6م) منها كنيسة أكويليا Aquileia، شمال إيطاليا، " كنيسة تريير Trier ، ألمانيا"، " كنيسة جميلة Djemila بالجزائر، شمال أفريقيا"، مع الاشارة لكنيسة " كنيسة العين الجديدة بالواحات الداخلة بمصر (ق 4م).

الكلمات الدالة:

العمارة المسيحية المبكرة؛ البازيليكا المزدوجة؛ كنيسة أكويليا؛ كنيسة تريير؛ كنيسة جميلة بالجزائر؛ كنيسة العين الجديدة.

JOURNAL of ARCHAEOLOGY & TOURISM

P-ISSN: 2812-6378 ONLINE-ISSN: 2812-6386
Journal Home Page: https://jatmust.journals.ekb.eg/

THE ORIGIN OF THE TWIN-BASILICA CHURCH AND ITS FUNCTIONAL CONTEXT

| Received March 11th 2022 | Accepted May 9th 2022 | Available online August 7th 2022 |
| DOI 10.21608/jatmust.2022.253381 |

Ahmed Ameen
Professor
Islamic Archaeology Dep.
Misr University for Science and Technology (MUST)
6th October, Egypt
Ahmed.ameen@must.edu.eg

ABSTRACT

The basilica known as the Genuine twin church appeared in an early period after the Milan Edict (after the year 313 CE), and then spread in the fourth and fifth centuries CE, especially in Europe, and stands out as a different architectural form rather than the other Christian religious architectural buildings. The twin-basilica represents two churches or along-axis halls, which may separated by a masonry or by a narrow corridor, and may connected with a baptistery or chapel. This architectural style disappeared with the 7th century CE, and then re-emerged in the Romanesque and Gothic arts. The function of the Genuine twin church especially in early Christian architecture (4th – 5th centuries CE) is a problematic issue. The focus of this paper is analyzing the functions of this architectural form considering the Church of Aquileia, Northern Italy, Trier Church, Germany, "Djemila Church in Algeria, North Africa," and the distinguished example the "Ain El-Jadida Church in the Dakhla Oasis, Egypt (4th c. CE).

KEYWORDS:

Early Christian architecture; Genuine twin church; Aquileia Church; Trier Church; Djemila Church; Ain El-Jadida Church.

المقدمة

الكنيسة–المزدوجة "Genuine twin church" وفقًا لكراوتهايمر (Krautheimer)[1] هي كتلة معمارية من بنائين طوليين متقاربين فى المساحة إلى حد ما، ومتوازيين تقريبًا، ويفصل بينهما ممر ضيق؛ أو فناء صغير قد يحوى أحيانًا المعمودية، أو مصلى صغير. وأحيانًا يتقدم الكتلة سقيفة خارجية أو فناء خارجى مشترك. مع مراعاة الفصل والتمييز بين الكنيسة المزدوجة وفق هذا التعريف وبين أشكال الكتل المعمارية الكنسية الأخرى؛ ومنها البازيليكا الملحق بها مصلى صغير (زاوية Chapel)، أو تلك المتكونة من بازيليكتين اللتين تمتدان على محور طولى واحد على التوالى، أو المواقع حيث تتجمع الملحقات الأخرى بالكنيسة مثل المعموديات والمواقع المقدسة والمشاهد والأضرحة والردهات ... إلخ

وترجح أراء رودولف إيجر وجربر (Rudolf Egger، وW. Gerber) اللذان قاما بالحفائر فى موقع دالماتيا بسالونا "The Dalmatian Site of Salona" أن نشأة الكنيسة المزدوجة كانت فى إيستريا[2] فى بداية القرن الرابع الميلادى. ويتفق كراوتهايمر مع هذا الرأي. ظهر نمط البازيليكا المزدوجة منذ بدايات القرن الرابع وانتشر طوال القرنين الرابع والخامس بصفة خاصة فى أوربا، ثم أخذ هذا النمط فى الاختفاء حتى عاد للظهور مرة أخرى فترة العصور الوسطى مع الفن الرومانسكى والقوطى.

تناولت كارين[3] هنريكس .Henricks K "The Early Christian double-basilica" هذا الموضوع فى أطروحتها لنيل درجة الدكتوراة سنة 1989م؛ وتنتهى من أطروحتها دون أن تخلص إلى تفسير نهائى لوظيفية البنائين فى البازيليكا–المزدوجة بشكل يقينى، بل وتذكر أن النتيجة الحقيقية لعملها وفق خاتمة أطروحتها: "كيف أن معلوماتنا عن هذه الفترة المبكرة (ق4–5م) ضعيفة جدًا، وكيف نحكم عليها وفق أدلة وشواهد تعود لفترات متأخرة". وهنا حقيقة تكمن صعوبة الموضوع.

وتمثل مقالة كراوتهايمر[4] "The Twin Cathedral at Pavia" باكورة الدراسات عن البازيليكا المزدوجة؛ فيذكر أن الكنيسة–المزدوجة جاءت بداية كواحدة من الترتيبات المتعددة التى وجدت فى العالم المسيحى المبكر حيث تتجمع أو تتكتل منشآت ثانوية حول جسم الكنيسة. وفى هذا السياق تمثل جوهر الفكرة أن الكنيسة المزدوجة، شأنها فى ذلك شأن كافة التجمعات، ظهرت رغبة فى جمع وتوحيد أشكال معمارية خاصة تخدم أغراض وظيفية متباينة في مكان واحد (أى تعكس فكرة المجمع المعمارى ذو الغراض الوظيفية المختلفة).

وتخلص الدراسات السابقة إلى أن وظيفة البازيليكا المزدوجة (الكنيستين المتوازيتين القريبتين)

[1] Krautheimer, Early Christian, 43.

[2] - تمثل إيستريا "Istria" أكبر شبه جزيرة بالبحر الأدرياتيكي، وتتقاسمها ثلاث دول هى سلوفينيا وكرواتيا وإيطاليا.

[3] Henricks, The Early Christian double-basilica, 38-39.

[4] Krautheimer, "The Twin Cathedral at Pavia", 161-180.

واستخدام كل منهما لا تزال إشكالية تتعلق بعمارة الكنائس المبكرة التى تعود للقرنين الرابع والخامس. وتظهر الإشكالية بصفة خاصة فى كنيسة أكويليا حيث لا يمكن الجزم بوظيفة القاعتين أو الكنيستين الجنوبية والشمالية، أو حتى الجزم بوجود مذبح فى أى منها أو فى كليهما. وسنعرض للأراء التى قيلت فى هذا الصدد ومناقشتها في محاولة لحسم هذه الإشكالية.

البازيليكا–المزدوجة بأكويليا "Aquileia، شمال إيطاليا": التخطيط والوظيفة

مدينة أكويليا، بشمال إيطاليا، كانت مركز تجارى هام وموقع استراتيجى عسكرى فترة العصر الرومانى. بنيت كنيسة أكويليا (البازيليكا–المزدوجة) اعلى بقايا فيلا "دار" رومانية تعود للقرن الأول الميلادى، ولازالت بقاياها موجودة فى موقع أسفل برج الكنيسة (ق11م) والصالة الشمالية لبناء ثيوذورس (ق4م). واغلب الظن أن الدار الرومانية كانت مستخدمة ككنيسة–منزلية؛ ومع فترة السلام مع الكنيسة بعد مرسوم ميلانو بنيت كنيسة كبيرة فى مكانها. وقد انعكس تأثير العمارة السكنية كتخطيط وعناصر معمارية، كما انعكس ترتيب الاستخدام الوظيفى للكنيسة–المنزلية على عمارة الكنيسة الجديدة. فكل من القاعتين (البازيلكتين) بمثل استمرارية لقاعات التجمع فى المنازل قبل عصر قسطنطين، وما حدث هنا تكرار لهذه الوحدة المعمارية، وهى تمثل فى عمومها استمرار للعمارة المحلية[5]. والتقسيم العام للمجموعة المعمارية ككل يعكس تأثير استخدام الكنائس–المنزلية فى التخطيط.

الكنيسة–المزدوجة الأولى[6]. تمثل كاتدرائية أكويليا فى هذه الفترة المبكرة، وبناها الأسقف ثيوذروس (يذكر أنه الأسقف الرابع أو الخامس لأكويليا) فى الفترة 313–319. وعرفت هذه الكنيسة بالكنيسة الثيوذورية نسبة إليه. ونسبة الكنيسة للأسقف ثيوذورس وكذلك تاريخها استنادًا لنص تأسيسى وضع على فسيفساء أرضيه (مجلس الكنيسة) بالكنيسة الجنوبية عند وفاة ثيوذورس سنة 320م. وهناك نقش ثانى يشير الى الأسقف ثيوذورس بأرضية الكنيسة الشمالية يفيد تعريفه بأنه أسقف ومنشئ الكنيسة–المزدوجة، والتاريخ مثبت أيضًا بتقنية الفسيفساء الأرضية.

تتكون مجموعة ثيوذورس المعمارية من كنيستين (واحدة جنوبية وثانية شمالية) متوازيتين ومتصلتين ببناء عرضي (مستعرض) يربط بينهما (شكل 1). ويتكون البناء الأخير –متجهًا من الشرق إلى الغرب– من مدخل المجموعة المعمارية ككل، وممر أو (دهليز) ومجموعة من الحجرات، يليها صالة مستطيلة مستعرضة أى أن محورها الطولى يمتد شمال–جنوب، وتربط بين الكنيستين الجنوبية والشمالية، ويمثل البناء العرضى مساحة أكبر من أى من الكنيستين. المجموعة المعمارية بالكامل مبنية خلال فترة زمنية قصيرة، وخططت ابتداء كوحدة معمارية واحدة؛ فالجدران الخارجية للمجموعة متزامنة ومتصلة فى البناء.

كل من الكنيستين تمثل بازيليكا مستطيلة (حوالى 20x37متر) المسقط تتجه من الغرب إلى

[5] - Krautheimer, Early Christian, 43.
[6] - Henricks, **The Early Christian double-basilica**, 53-60.

الشرق، وتنتهى جهة الشرق بحنية مستطيلة المسقط، وتنقسم داخلياً الى ثلاثة أروقة متساوية الاتساع تقريباً بواسطة بائكتين كل منها مكون من ثلاث دعامات.[7]

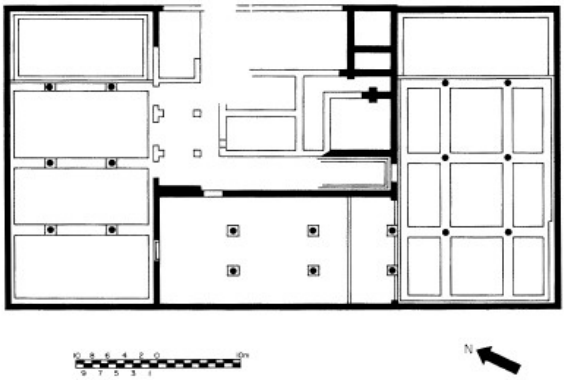

(شكال 1) الباز يليكا-المزدوجة بأكويليا (313-319م)، مسقط أفقى
المصدر: Krautheimer, Early Christian, 44.

الكنيسة الشمالية. رغم أن جزء كبير من تخطيط الكنيسة الشمالية قد غطى بإنشاءات تعود للقرن 11م (برج الكنيسة)، إلا أنه واضح المعالم، فآثار قواعد الأعمدة موجودة فى المكان بامتداد الأرضيات الفسيفسائية، حيث تقسم المساحة الداخلية إلى أربع وحدات كبيرة من الغرب إلى الشرق (ثلاث تمثل صحن الكنيسة، والرابعة الشرقية تمثل هيكل الكنيسة) كل واحدة تمثل زخرفة أرضية مستقلة.

فسيفساء الجزء الغربى محدودة فى اللون والتصميم، ومضمون زخارفها هندسية مع تصاوير عديدة للطيور وفروع نباتية وقد وجد نقش ثيوذورس فى هذه المساحة. الوحدتين فى الوسط (الثانية والثالثة) واللتين تتوازى مع بناء أقدم قوامها زخرفة الفسيفساء بها زخارف هندسية ونباتية وأشكال حيوانات. وقسمت فسيفساء الوحدة الأخيرة الشرقية إلى ثلاث مساحات؛ مساحتان طرفيتان متماثلتان تحصران بينهما مساحة مركزية على شكل شبه منحرف، ويشار إلى الأخيرة على موقع كرسى الأسقف، وتبعاً لتحديد موقع كرسى الأسقف يمكن تحديد أماكن بقية العناصر المعمارية الطقسية خاصة المذبح.

الكنيسة الجنوبية. يتم الدخول اليها عبر الدهليز والجزء الشمالى من البناء المستعرض بين الكنيستين. وتحوى أرضياتها فسيفساء ثرية فى زخرفتها وتقنيتها؛ والتى ميزت وحددت عبر موضوعات زخارفها التقسيم الداخلى للمجموعة المعمارية.

الجزء الشرقى للكنيسة الجنوبية مفصول عن صحن الكنيسة بواسطة حجاب من الرخام وهذا الفصل مؤكد كذلك عبر أرضيات الفسيفساء، وكان هو الجزء الوحيد من الكنيسة المغطى بقبو اسطوانى مستعرض، ويفصل هذا الجزء عن صحن الكنيسة والبلاطتين المحيطتين به بائكة مستعرضة من ثلاث عقود (على غرار تصميم قوس النصر الروماني)، وكان يوضع فى الشرق مقعد الأسقف، ومقاعد رجال الدين، بينما المذبح (كان متحركا غالبا) كان يوجد فى صحن الكنيسة.

[7] Bertacchi, "Note Sulla unita construttiva dell' aula Teodoriana nord …", 237-256.

مكان المعمودية الأولى بكنيسة ثيوذورس يذكر Tamaro أن مكانها فى الجزء الشمالى من الدهليز الموازى للصالة العرضية الرابطة بين الكنيستين[8]. والمعمودية تقع أسفل الشكل السداسى بالكنيسة التى بنيت لاحقا فى القرن 4 أيضاً أعلى الكنيسة الثيوذورية، وأعلى من البناء الرومانى الأول.

فسيفساء الكنيسة الجنوبية[9] مقسمة لأربعة أجزاء رئيسية من الغرب إلى الشرق؛ منها ثلاث مساحات تمثل صحن الكنيسة والبلاطتين، مقسمة إلى 9 مساحات زخرفية محدد بإطار مزخرف بأوراق العنب. وتعرض وضوعاتها التصويرية بالترتيب من الغرب إلى الشرق على النحو التالى: نجد فى الجزء الأوسط من البلاطة الجنوبية نجد رسم الراعى الصالح داخل مثمن مركزى، محاط برسوم حيوانات وطيور. ويليه فى الجزء الأوسط من البلاطة الثالثة (المساحة التى تتقدم الهيكل مباشرة) تصوير داخل مساحة مربعة يرمز لطقس الإفخاريستيا، ملاك بجناحين ممسكا بغصن النصر، وسلة من الخبز وأخرى من الكرم. وتنتهى المساحة الشرقية (الجزء المستعرض الشرقى من الكنيسة، والذى يمثل افتراضًا مساحة الهيكل) بمنظر تصويرى بحرى ملئ بالحياة المائية ورسوم أسماك وصيد. ويحوى المنظر تصوير النبى يونس عليه السلام فى رمزية لبعث المسيح عليه السلام، وبصورة مشابهة لرمزية الميلاد الجديد للموعوظ عبر العماد. كما يمكن تفسير رسوم السمكة للإشارة فى رمزية إلى الموعوظ وإلى العماد (حيث الميلاد الجديد). ويتوسط هذه المساحة تقريباً النقش الخاص بالأسقف ثيوذورس. وهناك آثار فى أرضية الفسيفساء حول النقش قد تشير لموضع أرجل المذبح.

ويشير زوڤاتو Zovatto فى قراءة موضوعية للبرنامج التصويرى للفسيفساء وترتيبها، أنها تمثل بالتوازى من الغرب إلى الشرق موضوعات التعليم الديني ومراحل التعليم للموعوظين، وخطوات العماد: الرقية (التخلص من الأرواح الشريرة)، والتطهر، الخلاص، والافتداء، ويتوج ذلك بقبوله فى طقس الإفخاريستيا (صلاة الشكر).

الكنيسة–المزدوجة الثانية[10]. حلت كنيسة–مزدوجة بازيليكة جديدة محل كنيسة ثيوذورس نتيجة توسعة الكنيسة الشمالية وبعض أعمال البناء وذلك على مرحلتين فى الفترة بين 340–408م. فمن المحتمل ان الكنيسة الشمالية أعيد بناؤها أولاً وفى فترة لاحقة ربما منتصف ق 4م أو قبل ذلك تم توسعتها، وباستخدام الجدران الشمالية والشرقية للبناء القديم فى توسعة الكنيسة الشمالية فإن مساحتها تضاعفت تقريباً فى الطول وامتدت أكثر اتجاه الجنوب. وهذه الكنيسة الجديدة بعد التوسعة قسمت من الداخل الى رواق أوسط وبلاطتين جانبيتين بواسطة صفين من الدعامات (14 دعامة) والنهاية الشرقية للكنيسة مستطيلة المسقط، وتمثل استمرار للتقليد المحلى فى البناء (شكل 2). ومكان المعمودية فى هذا البناء الجديد يقع جنوب الكنيسة الشمالية، وقد أخذ الحوض شكل سداسى بنهايات بيضاوية. الكنيسة

[8] Tamaro, "Ricerche sull'aula Teodoriana nord e sui battisteri di Aquileia", 97-98.
[9] Zovatto, "Il Significato della basilica doppia. L'Esempio di Aquileia", 357-398 ; Henricks, The Early Christian double-basilica, 57-63.
[10] Henricks, The Early Christian double-basilica, 65-67.

الجنوبية تم توسعتها أيضا بصورة كبيرة فى النصف الثانى من القرن الرابع الميلادى وتنسب التوسعة هذه للأسقف كرومازيو (388–405م). فامتدت الكنيسة الجنوبية الجديدة باتجاه الشرق والشمال. والبازيليكا–المزدوجة الناتجة عن المرحلة الثانية من الإنشاء تمثل نمط متطور متميز.

المجموعة المعمارية (شكل 3) أصبح يتقدمها سقيفة من الجهة الغربية تمتد بعرض المجموعة، وأصبح يفصل بين الكنيستين ممر ضيق ويوجد فيه الحوض السداسى للمعمودية.

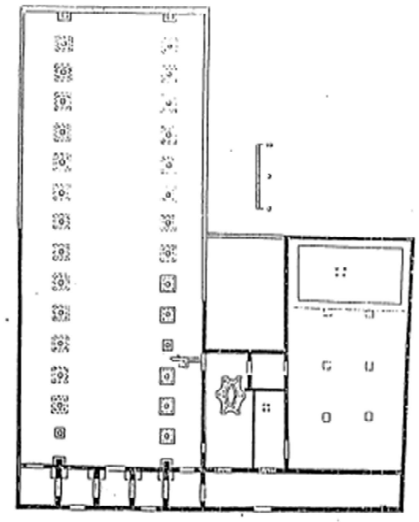

(شكل 2) البازيليكا-المزدوجة بأكويليا (منتصف القرن4م)، مسقط أفقى

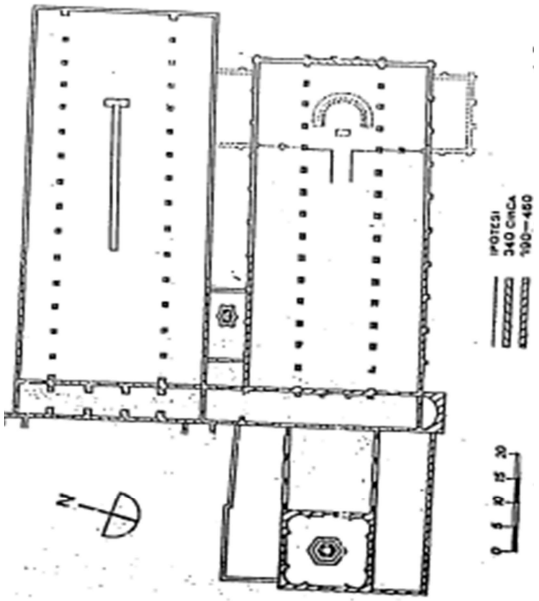

(شكل 3) البازيليكا-المزدوجة بأكويليا (نهاية القرن4م- بداية القرن 5م)، مسقط أفقى

المصدر: Henricks, The Early Christian double-basilica, Figs. 11-12.

وقد أنشأ كرومازيو بناء جديد (معمودية) على محور واجهة الكنيسة ويتصل بناء المعمودية الجديدة بالسقيفة الغربية للكنيسة الجنوبية. ويتكون بناء كرومازيو من غرف جانبية تحيط بالمعمودية من جهتى الشمال والجنوب.وتمثل المعمودية الجديدة بناء نمطى ثابت وحر، مربع الشكل من الخارج ومن الداخل يأخذ شكل مثمن بحنايا ركنية عميقة. ويأخذ حوض العماد شكل سداسى.

تأخذ النهاية الشرقية للكنيسة الجنوبية كما بالكنيسة الشمالية مسقط مستطيل، وهى مقسمة بواسطة بائكتين من الدعامات إلى رواق أوسط وبلاطتين جانبيتين. وتمثل كنيسة أكويليا نموذج كامل للبازيلكا–المزدوجة، خاصة (النموذج المتطور) بنهاية القرن 4م.

تذهب كثير من الأراء أن الكنيسة الجنوبية بالبازيليكا–المزدوجة بأكويليا اسُتخدمت كمكان للموعوظين[11]، وأن الكنيسة الشمالية كانت كنيسة للصلاة يتم فيها قداس الإفخاريستيا. ويذهب شوماخر Schumacher أن البناء الثانى كان كنيسة كاملة وليس مجرد قاعة للموعوظين أو العماد، وأن الرسوم تقود لاستخدام محدد (الاحتفال بالقداس). بينما يذكر كراوتهايمر أن الكنيسة الجنوبية كانت مقر الأسقف

[11] Kempf, Ecclesia Cathedralis eo quod ex duabus ecclesiis Perficitur, 3-10 ; Helge, Aus der Baugeschichte der Spatantike, 2, 95-99; Zovatto, "Il Significato della basilica", 357-398.

وبها مذبح (متحرك) ومن ثم فيقام فيها قداس الإفخاريستيا. ويناقش كراوتهايمر وظيفة الكنيستين (البازيلكتين أو القاعتين) فى البازيليكا–المزدوجة بباقيا؛ فيرجح (مقتفيًا أثر Gnirs) إلى أن واحدة كانت تحوى المذبح (أو الهيكل) ولذا كانت تستخدم فى الاحتفال بقداس الشكر "الإفخارستيّا" (Eucharist)، والبازيليكا الثانية من المحتمل أنها كانت تستخدم للتثبيت (Consignatorium). فى هذه الفترة كان هناك ثمة مذابح متحركة شائعة لأداء الطقوس، وفى الفترة المبكرة لا يمثل عدم وجود مذبح ثابت دليل على عدم إقامة طقوس صلاة الشكر فى هذا المكان. ومن هنا تتضح إشكالية أن كل هذه التفسيرات تظل اجتهادات دون دليل يقينى يقطع باستخدام دون آخر. ومن الواضح أن البازيلكتين؛ واحدة تمثل كنيسة تقليدية يقام فيها القداس، والإشكالية تتمثل فى البازيليكا الثانية ووظيفتها خاصة النماذج المبكرة، ومن الاستخدامات المطروحة تتمثل فى التالى: قاعة للموعوظين، التحضير للعماد، التثبيت، كنيسة ثانية كاملة، قاعة لتعليم ودراسة الكتاب المقدس، وفى مرحلة ثانية مكان لحفظ الذخائر المقدسة للشهداء.

وفى نموذج كنيسة أكويليا فى محاولة لتقديم دليل غير تقليدى على استخدام الكنيسة الثانية كمكان للموعوظين قام زوڤاتو[12] Zovatto بدراسة الموضوعات التصويرية لفسيفساء أرضيات كنيسة أكويليا Aquileia. فيذهب زوڤاتو أن البازيليكا المزدوجة كانت تستخدم واحدة ككنيسة تقام فيها الطقوس، والثانية للموعوظين. والجديد هنا ليس تحديد الوظيفة بل الدليل الذى قدمه لإثبات ذلك؛ فهو يدلل على استخدام المكان الثانى لجمع الموعوظين عبر دراسة البرنامج التصويرى للفسيفساء الأرضية لهذه الصالة الجنوبية، وترتيب الموضوعات التصويرية؛ والتى قسمها لأربع أجزاء رئيسية من الغرب إلى الشرق وبالتوازى: التعليم الديني، ومراحل التعليم للموعوظين، وخطوات العماد: الرُقية (التخلص من الأرواح الشريرة)، والتطهر، الخلاص، والافتداء، ويتوج ذلك بقبوله فى طقس الإفخاريستيا. ورغم وجاهة هذه القراءة إلا أنها مردود عليها حيث أن طقوس العماد والإفخاريستيا وسرية رمزيتها لا يطلع عليها الموعوظ إلا قبل العماد مباشرة؛ ومن ثم فموضوعات البرنامج التصويرى وفق هذه القراءة تقدم دليل على عدم استخدام المكان للموعوظين وليس العكس. وهذا يتفق مع رأى شوماخر أن الكنيسة الجنوبية كانت تمثل كنيسة كاملة وليس مجرد قاعة للموعوظين أو العماد، وأن الرسوم تقود لاستخدام محدد (الاحتفال بالقداس).[13]

ويقترح زوڤاتو نفسه تفسير مختلف لوظيفة المكان الثاني ضمن البازيليكا المزدوجة كقاعة لمدارسة وقراءة الكتاب المقدس نتيجة تأثر البازيليكا المزدوجة بالمجمع اليهودي؛ والذى تطور بإنشاء حجرة ثانية –بجانب قاعة العبادة الرئيسية– بغرض دراسة وقراءة التوراة.

وفكرة استخدام مكان للموعوظين ضمن المجموعة المعمارية الكنسية يعود لفترة مبكرة وارتبط

[12] Zovatto, "Il Significato della basilica doppia". 357-398.
[13] Schumacher, "Die 'Opferprozession' in Aquileia", 683-694.

بمفهوم الكنيسة المنزلية مثل نموذج دورا أوربوس[14] بسوريا. وفى هذا النموذج الفصل والتمييز واضح بين المكانين بحسب التصميم والمساحة والتوجه وعلاقة المكانين ببعض، فالكنيسة أو مكان التجمع الرئيسى قاعة كبيرة مستطيلة محورها الطولي من الغرب للشرق، بينما مكان الموعوظين عمودى عليه يتجه شمال–جنوب يتصل بالكنيسة (مكان التجمع) بواسطة باب فى نهايته الغربية.

كنيسة العين الجديدة بالواحة الداخلة بصحراء مصر الغربية

العين الجديدة بواحة الداخلة بالصحراء الغربية بصعيد مصر ؛ وتم الكشف فيها عن مجمع الكنسى مؤرخ بالقرن الرابع الميلادى عبر مرحلتين من اعمال الحفائر ؛ الأولى كانت تحت إشراف المجلس الأعلى للآثار[15] المصرى فى الفترة 1993–1995م، وشارك فيها الأستاذ كمال بيومى وكتب مقالا[16] عن نتائج حفائر هذه المرحلة. والمرحلة الثانية تمثل حفائر مواسم 2006–2008م، وقامت بها بعثة مشتركة من المجلس الأعلى للآثار مع الجامعة الكولومبية[17].

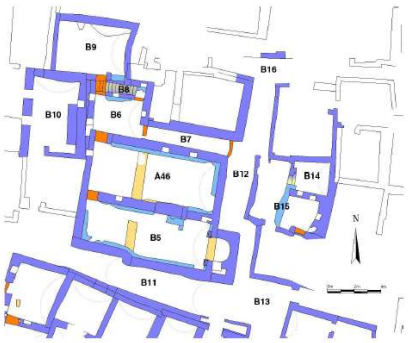

(شكل 4) كنيسة العين الجديدة بالواحات الداخلة بمصر (ق 4م) ، الموقع، مسقط أفقى

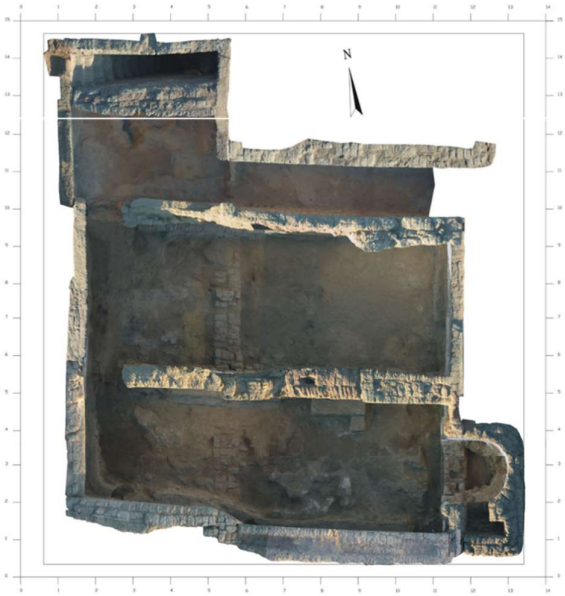

(شكل 5) كنيسة العين الجديدة بالواحات الداخلة بمصر (ق 4م) ، المجمع الكنسى

أشكال (4-6) المصدر: Aravecchia, Christians of the Western Desert in Late Antiquity

(شكل 6) كنيسة العين الجديدة بالواحات الداخلة بمصر (ق 4م) ، الدركاة

[14] تعد كنيسة دورا أوروبوس – في الصالحية، مدينة أثرية سورية– أقدم كنيسة منزلية مؤرخة ومعروفة حتى الآن. وتم هدم هذا المنزل ضمن مجموعة من المنازل عند إعادة تحصين سور المدينة سنة 257م. كان المنزل يقع على أطراف المدينة عند إنشائه، وهو يمثل نموذج تقليدي للعمارة السكنية شرق الإمبراطورية الرومانية. للمزيد عن هذه الكنيسة ورسومها راجع: أمين، العمارة المسيحية المبكرة، 27-29 ؛ Rostovtzeff, *Dura-Europos and Its Art* ; Kraeling, *The Cristian Building, "The Excavations at Dura Europos,"* ; Hopkins, *The Discovery of Dura Europos* ; Wharton, *Refiguring the post classical city: Dura Europos*, 25 f ; Dirven, *The Palmyrenes of Dura-Europos*.

[15] حاليًا وزارة السياحة والآثار.

[16] Bayoumi, "Excavations at 'Ain al Gadida in the Dakhleh Oasis", 55-62.

[17] للمزيد عن كنيسة عين الجديدة واعمال الحفائر بها ونتائجها انظر،
Aravecchia, Christians of the Western Desert in Late Antiquity: The Fourth-Century Church Complex of Ain el-Gedida.

تم الكشف عن المجموعة الكنسية عبر المرحلتين معًا؛ حيث تم الكشف عن الكنيسة الرئيسية وبها الحنية الشرقية وبعض العناصر المعمارية الأخرة والتى تؤكد وظفتها ككنيسة سنة 2006 واستمرت الحفائر سنة 2007م، ويرمز لها على المخططات والصور (B5)، وسأعرفها لاحقاً بالكنيسة. بينما قاعة التجمع شمالي الكنيسة –والموازية لها والمتصلة بها بل والتوصل إلى الكنيسة لايتم إلا عبرها– تم الكشف عنها فى حفائر سنة 1996م تحت إشراف المجلس الأعلى للأثار. وأعيد تنظيفها مرة ثانية من التراب نتيجة الرياح وتم تسجيلها سنة 2007م، ويرمز لها على المخططات والصور (A46)، وسأعرفها لاحقاً بالكنيسة الثانوية. وسأشير إلى الكنيسة والكنيسة الثانوية معاً بمصطلح الكنيسة–المزدوجة، وإلى الكنيسة المزدوجة مضافاً إليها الممر والدركاة المؤديان إليها والملحقات الأخرى بالمجمع الكنسى.

وأسفرت الحفائر فى موقع العين الجديدة عن تقسيم منطقة العمل لمجموعة من المناطق أو الكيمان، ويعنينا منها هنا المنطقة الأولى Mound 1؛ حيث وجد المجمع الكنسي والذى يتكون من الكنيسة–المزدوجة ومجموعة من الغرف ملحقة بها. يشغل المجمع الكنسى مساحة حوالى 164م^2، وتقع الكنيسة فى الجزء الجنوبى من المجمع، ومساحتها حوالى 35.5م^2، ويتوصل إليها من الكنيسة الثانوية ومساحتها 36.5م. وممر (دهليز) مستطيل محوره الطولى يمتد من الشرق إلى الغرب، ويرمز له على المخططات والصور (B7)، وسأعرفه لاحقًا بالممر. ويفضى الممر فى نهايته الغربية إلى دركاة المجمع الكنسى، ويرمز لها على المخططات والصور (B6)، وسأعرفها لاحقًا بالدركاة. وعن طريق الدركاة تتصل بالكنيسة–المزدوجة بوحدات معمارية أخرى؛ فبواسطة باب بالزاوية الغربية بالجدار الجنوبى للدركاة يتوصل إلى داخل الكنيسة–المزدوجة، بينما تتصل الدركاة عبر باب بالزاوية الغربية بجدارها الشمالى بحجرة أخرى يرمز لها على المخططات والصور (B9)، وبالزاوية الشرقية بنفس الجدار يوجد فتحة باب تقود إلى سلم يوصل إلى بقايا الأسطح المقبية الخاصة بحجرتين شمالى غربى الدركاة ويرمز لهما على المخططات والصور (B9 and B10). (شكل رقم 4، 11)

الممر يمثل طريق ثانوى ينتهى جهة الغرب بفتحة تمثل المدخل الوحيد للمجمع الكنسى، وهو مساحة مستطيلة أبعادها 1.13x5م (شكل 8)، والجدران مبنية بالطوب اللبن. يفضى الممر إلى الدركاة (شكل 6) والتى تقع شمالى–غرب الكنيسة المزدوجة. الدركاة مستطيلة المسقط 3.78x2.77متر، وتمثل مركز الحركة والانتقال داخل المجمع الكنسى.

الكنيسة الثانوية. المدخل الوحيد لها من الدركاة عبر فتحة باب يقع فى الزاوية الشمالية الغربية للكنيسة الثانوية. اتساع فتحة الباب 80سم وعمقها 70سم، وعتب الباب لازال موجودا وهناك آثار فتحات تمثل أماكن تثبيت الباب الخاص بالكنيسة الثانوية. تخطيط الكنيسة الثانوية عبارة عن قاعة مستطيلة (أبعادها 4x9.5 m) تمتد موازية للكنيسة ومساوية لها فى المساحة تقريباً وتأخذ نفس محورها الطولى. على نفس محور باب الكنيسة الثانوية توجد فتحة باب بالزاوية الجنوبية الغربية تمثل المدخل الوحيد

للكنيسة فى شكلها النهائى. اتساع فتحة المدخل هذه باتساع 80سم وعمق 70سم، وعتب الباب لازال موجودا وهناك آثار فتحات تمثل أماكن تثبيت الباب الخاص بالكنيسة. الجدران التى كشفت عنها الحفائر حفظت بارتفاع حوالى 2.20م وحتى265م، ويعلو الجدران آثار تدل على أن الكنيسة الثانوية وكذا الكنيسة كانت مغطاة بأقبية.

ويمثل الجدار الجنوبى للكنيسة الثانوية جدارا مشتركاً بينها وبينها الكنيسة حيث هو نفسه الجدار الشمالى للكنيسة (أشكال 7–8). وكان يوجد مدخل ثان للكنيسة يتوسط هذا الجدار المشترك؛ ولكن فتحة المدخل هذا سُدت فى فترة لاحقة على تاريخ بناء الكنيسة غير معلومة بواسطة بناء من الطوب اللبن يمكن تمييزه بسهولة عن البناء الأصلى للجدار، ليشير إلى ثمة تغير فى الشكل المعمارى والغالب أنه ناتج عن تغير وظيفى أو احتياج وظيفى مختلف. وفتحة هذا المدخل متسعة (2متر اتساع و 85سم عمق "سمك الجدار").

(شكل 7) كنيسة العين الجديدة، الكنيسة-المزدوجة، من الغرب إلى الشرق

(شكل 8) كنيسة العين الجديدة، الكنيسة-المزدوجة، من الشرق إلى الغرب

(شكل 9) كنيسة العين الجديدة، الكنيسة-المزدوجة، الحنية والجدار المشترك، وموضع الأميون

(شكل 10) كنيسة العين الجديدة، الكنيسة-المزدوجة، الحنية

أشكال (7: 10) المصدر: Aravecchia, Christians of the Western Desert in Late Antiquity

الكنيسة. مساحة مستطيلة المسقط (3.65x11.35 m) محورها الطولى يمتد من الغرب إلى الشرق، وموجهة باتجاه الشرق، وتنتهى بحنية نصف مستديرة جهة الشرق. واتصالها بالخارج غير مباشر؛ حيث يتم فقط عن طريق الكنيسة الثانوية والتى تتصل بالخارج بدورها بواسطة الدركاة. لتعبر بذلك عن مستويات متدرجة من خصوصية الأماكن العامة، والتى تمثل فيها الكنيسة أعلى مستوياتها خصوصية فى أوقات معينة؛ فأثناء طقوس قداس الإفخاريستيا يحضر فيها المؤمنون فقط، ولايسمح للموعوظين من غير المعمدين، والذين قد ينسحبوا للكنيسة الثانوية فى هذا الوقت. وداخل الكنيسة تدرج ثان حيث تمثل

الحنية والهيكل أعلى الأماكن خصوصية فى الكنيسة، فهى قاصرة فى دخولها واستخدامها على رجال الدين من ذوى الرتب الكهنوتية (أشكال 5، 9، 11).

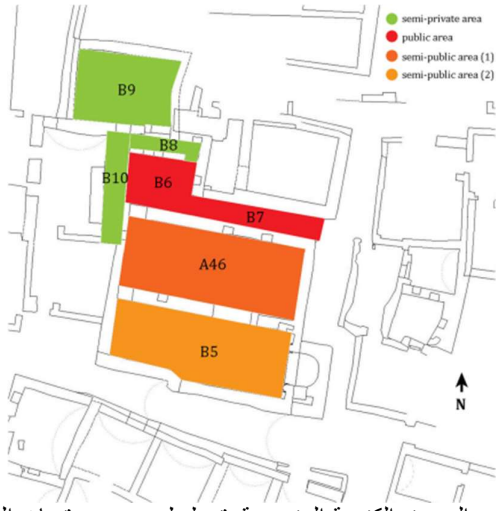

(شكل 11) كنيسة العين الجديدة، الكنيسة-المزدوجة، تخطيط يوضح مستويات الحركة والخصوصية
المصدر: Aravecchia, Christians of the Western Desert in Late Antiquity

الجدار الجنوبى للكنيسة يتكون من 3 أجزاء ليست على محاذاة واحدة؛ يعكس احتمالية التوسع جهة الغرب، والتقيد عند هذا التوسع بخط تنظيم الطريق جنوبا (أشكال 5 ،7–8). الجدار الشمالى للكنيسة (والمشترك بينها وبين الكنيسة الثانوية) يتكون أيضاً من ثلاثة أجزاء بنائية وفتحة الباب فى أقصى الغرب منه. الجزء الأول من جهة الشرق ينتهى بكتف بنائي عرضى لزيادة تدعيم الجدار والسقف. يليه غربًا الجزء الذى أغلق على المدخل المتسع الذى كان يربط بين الكنيسة الثانوية، يليه الجزء الثالث، ويفصل بينه وبين الجدار الغربى للكنيسة فتحة الباب الوحيد للكنيسة فى تخطيطها النهائى.

تنتهى الكنيسة جهة الشرق بحنية نصف دائرية المسقط (أشكال 5 ،7 ،9 ،10)، نصف قطر الحنية حوالى 1.75متر، ويحدد الحنية عمودين مدمجين بنقطتي التقاء الحنية مع الجدار الشرقى تجاه صحن الكنيسة، كل من العمودين ذى مسقط أسطوانى بقطر 34سم، والمتبقى منهما ارتفاع 138سم (العمود الشمالى)، 148سم (الجنوبى). كلا العمودان ذى بدن أسطوانى ينتهى عند القاعدة بشريط بارز ضيق يدور حول البدن، ويرتكز على قاعدة مستطيلة (45x25x20cm).

تمثل كنيسة العين الجديدة بالواحة الداخلة بصحراء مصر الغربية المؤرخة بالقرن 4م، نموذج متطور شديد الأهمية يمثل مرحلة انتقالية بين الكنيسة المنزلية وبين الكنيسة الرسمية – إن جاز التعبير، بعد السلام مع الإمبراطورية عبر مرسوم ميلان سنة 313م– والكنيسة المزدوجة خاصة.

حيث من الواضح أن القاعتين فى كنيسة العين الجديدة تمثلا وحدة معمارية واحدة لها مدخل واحد، والدخول إلى الكنيسة الجنوبية عبر القاعة الشمالية (الكنيسة الثانوية)، وكانتا متصلتان بصورة مباشرة عبر مساحة متسعة تتوسط الجدار المشترك بينهما حيث يوجد الأمبون، والذى لا تزال آثاره

واضحة؛ ليؤكد صبغة الكيان المعمارى الواحد للمكانين معاً، ثم حدث سد لهذا المدخل المتسع ببناء واقتصر الاتصال بين المكانين على مدخل بأقصى الجهة الغربية من الجدار المشترك بينهما، والذى يمثل المدخل الوحيد للكنيسة الجنوبية فى شكلها النهائى.

الكنيسة المزدوجة وإشكالية الوظيفة

تعرض النماذج سابقة الذكر قضية وظيفة الكنيسة المزدوجة، واستخدام البازيليكا الثانية (أو المكان الثانى) كمكان بصورة أفضل فى سياق تأثر النماذج المبكرة لهذا التخطيط بالعمارة السكنية فى ضوء عمارة الكنائس المنزلية، أى أماكن العبادة الأولى فى المسيحية.

وهناك محدد آخر يجب الإشارة إليه وهو التغير الجذرى الذى حدث بعد السلام مع الكنيسة؛ والذى نتج عنه تغيرات جوهرية فى طبيعة الحياة داخل الكنيسة وكذا مراحل التنصر ومداها الزمنى والطقوس نفسها مثل طقس العماد وما صاحبه من تغيرات.

ولنأخذ مثال على ذلك موضوع الموعوظين وحتى الوصول لطقس العماد ثم التثبيت انتهاءً بالمشاركة فى قداس الشكر. فقبل السلام مع الكنيسة، كان الموعوظ (وفقًا لرسالة هيبوليتس فى رسالته سنة 215م) بداية يلتحق بالكنيسة كموعوظ بناء على تزكية من أحد أعضاء الكنيسة، تمثل شهادة منه بحسن أخلاقه وأمانته. ويظل الموعوظ فترة ثلاث سنوات كموعوظ، يتلقى خلالها برنامج تربوى تعليمى يتركز على الأخلاقيات والقيم وذلك على يد معلم أو ملقن. وعلى الموعوظ فى هذه الفترة أن يشارك فى الخدمات العامة وأنشطة الكنيسة وكافة الدروس والمواعظ ويحظر عليه فقط المشاركة فى قداس الإفخاريستيا.

وتنتهى هذه الفترة بتأهيل الموعوظ، بعد التاكد من استقرار القيم والأخلاقيات المتفقة مع الكنيسة داخله، للعماد الذى كان فى موعد ثابت قبل أحد عيد القيامة (أو الپاسخا)، والعماد له طقوسه أيضا ومنها أن يكون من سيعمد والكاهن الذى سيقوم بتعميده كلاهما صائمين وغير ذلك من الطقوس، ويشرح عندها الكاهن للموعوظ سر التعميد ورمزيته. ولاشك أنه فى هذه الفترة كان هناك انتقاء بعناية لمن سيصبح عضوا فى الكنيسة حيث كان من يقدم على ذلك على إدراك بأنه قد يتعرض لمشاكل قد تصل للإضطهاد أو حتى الموت فى ظل اعتناقه لدين على عكس إرادة الدولة.

وبعد التصالح مع الكنيسة حدثت تغيرات حيث صار هناك إقبال كبير على الدخول فى المسيحية، وبالتالى زادت أعداد من يرغبون فى التحول للمسيحية (الموعوظين) بصورة كبيرة، وأيضًا كان هناك تحول بالجملة فنجد قبائل كاملة تتحول إلى المسيحية مثل الشعوب الجرمانية. وانعكس ذلك على تقليص فترة الوعظ قبل العماد حتى وصلت فى بعض الحالات لبضعة أيام.

وعلى الجانب الآخر ظهرت إشكالية ثانية وهى أن عدد غير قليل ممن يريدون أن يتحولوا للمسيحية أرادوا أن يؤجلوا العماد حتى آواخر حياتهم؛ أى أن يظلوا موعوظين لفترة طويلة وغير محددة، ومن ثم يشاركون فى كل أنشطة وفعاليات الكنيسة باستثناء قداس الإفخاريستيا.

وفى ضوء هذه الاعتبارات أقترح أن البنائين فى البازيليكا–المزدوجة كان كليهما يقوم بوظيفة كنيسة كاملة خاصة فى الفترة الأولى من القرن الرابع الميلادى، حيث أن الموعوظين كان محظورًا عليهم فقط حضور قداس الشكر، ومن ثم كانوا ينسحبون فقط فى هذا الوقت من الكنيسة، وفى نموذج أكويليا كانوا الموعوظون يغادرون وقت قداس الإفخاريستيا للصالة العرضية وهى كبيرة المساحة ومتصلة بالكنيستين معًا، ويتم الانسحاب إليها بسهولة، وفى نموذج كنيسة تريير ينسحبون إلى الفناء الذى يتقدم الكنيسة جهة الغرب، وفى كنيستى جميلة فهناك مكان خاص بهم خارج الكنيستين ومتصل بالمعمودية يلجأون إليه، وفى كتيسة العين الجديدة كان التصميم رغم بساطته يعكس تخطيط مرن يوضح فكرة الاستخدام وتطور نظام الحركة من المكان العام إلى المكان شبه الخاص فالمكان الخاص بشكل متدرج ومتطور، فالموعوظون ينسحبون من الكنيسة الجنوبية إلى القاعة الشمالية بيسر (أى إلى جزء من الكنيسة يساعد موقعه وتخطيطه على سهولة عزله)، والمدخل المتسع الرابط بين الكنيسة الجنوبية والقاعة الشمالية عكس ضرورة وظيفية مستجدة، ومن المحتمل أن المكانين قبل بناء هذا المدخل كان يتم فصلهما بستارة.

ومع نفى استخدام واحدة من الكنيستين كمكان للموعوظين يظل السؤال مطروحًا ما الحاجة لكنيستين متجاورتين؟ وهل استخدامها لغرض واحد أم غرضين مختلفين؟

وأرجح الرأى الذى اقترحه ليهمان Lehmann (طرح فى مقالتين سنتي 1958[18]، 1962م[19]، وذكر تفسيره للوظيفة فى الأخيرة) وهو أن كنيسة تستخدم للقداس اليومي "Community Church"، والثانية اقتصر استخدامها على الاحتفالات الرئيسية والأعياد الدينية المتصلة بوجود الأسقف "أبرشية؛Parish Church"، ورغم أن ليهمان يذكر هذا التفسير فى سياق التغير الوظيفى للبازيليكا المزدوجة فى الفترات المتأخرة، واستشهاده على ذلك بواسطة نماذج كنائس تعود لفترة متأخرة.

ولذا فإن هذا التفسير الوظيفى والذى تتبناه هذه الدراسة جديد فى طرحه لتفسير وظيفية البازيليكا المزدوجة المبكرة؛ متمثلًا فى استخدام كنيسة كمقر للأسقف، وثانية للاستخدام اليومى. ويأتى هذا التفسير فى ضوء ثقافة العصر والتى تعكس زيادة النفوذ الروحى والسياسى للأساقفة ودورهم البارز فى هذه الفترة؛ فهم بمثابة نواب الإمبراطور إذا جاز التعبير، وهم المسئولون بصفة رئيسية عن بناء الكنائس، ورعاية المسيحيين، والرعاية الاجتماعية والأنشطة الخدمية، واستقبال المتحولون الجدد والدخول عن طريقه للعقيدة الجديدة سواء كانوا فرادى أو جماعات، أو قادة ورؤساء لقبائل أو شعوب؛ وقد انعكس

[18] - أضاف ليهمان فى هذه المقالة الأولى عدد من المواقع الأثرية الألمانية لقائمة كنائس البازيليكا المزدوجة. انظر،
Lehmann, Die frühchristlichen Kirchenfamilien der Bischofssitze im deutschen Raum, 88-99.

[19] - يتناول ليهمان فى هذه المقالة العمارة المسيحية المبكرة كمدخل لتطور العمارة وصولا لعمارة الكنائس القوطية. وهو يقدم تفسير مختلف لوظيفة المكان الثان فى الكنائس-المزدوجة المبكرة؛ حيث يعتقد أنها تمثل كنيسة ملحق بها مكان للموعوظين؛ مدعماً رأيه بتأثر البازيليكا المزدوجة في العمارة المسيحية المبكرة فى القرن الرابع الميلادى بعمارة الكنيسة-المنزلية دورا أوربوس حيث يلحق بمكان التجمع الرئيسي (الكنيسة) مكان آخر الموعوظين متصل به معمارياً. بينما يطرح وظيفة الاستخدام ككنيستين للكنائس المتأخرة، انظر،
Lehmann, "Von Der Kirchenfamilie zur Kathedrale", 21-37.

النفوذ المتعاظم للأسقف ودوره الرئيسي فى الحياة السياسية والدينية على تكريس المبنى الثانى له فى هذه الفترة المبكرة وأن يكون وثيق الصلة كذلك بالكنيسة الاعتيادية. فنجد النماذج المبكرة تمثل كاتدرائيات المدن الكبرى فى هذه الفترة مثل أكويليا وتريير وغيرها مما يدعم هذا التفسير لكونها كانت مقر الأسقفيات.

وفى تحول جديد ومع استقرار الكيان المعمارى للبازيليكا–المزدوجة ككنيستين كاملتين متكافئتين فى القدسية والعمارة، وبتطور السياق الدينى للكنيسة تعددت الوظائف للبازيليكا المزدوجة؛ فنجد أيضًا فى الفترة المبكرة خاصة فى القرن الخامس أصبح شائعًا تكريس واحدة من الكنيستين للشهداء والقديسين كموقع مقدس أو يحوى ذخائر مقدسة، وبالتوازى، أو تكرس للسيدة مريم العذراء.

ويجب تفسير ذلك فى ضوء ثقافة العصر –كما سبق القول– حيث أن هذا التفسير لايمكن الأخذ به لكنائس أكويليا وتريير وغيرهما من الكنائس المبكرة من القرن 4م على سبيل المثال؛ حيث أن التكريس للعذارء أو القديسين ظهر بعد مجمع إفسوس سنة 431م. وفى ضوء ذلك يذكر جان منيس[20] "Menis, G." (متفقا مع زوثاتو فى هذا الرأى) أن البناء الثانى فى البازيليكا المزدوجة لم يكن الأصل فى وظيفته فى العمارة المسيحية المبكرة كمشهد؛ للشهيد أو لجمع رفات أحد القديسين أو الشهداء والذى تكرس باسمه الكنيسة الثانية (أو البناء الثانى)، وإن هذا الاستخدام جاء فى فترات لاحقة، حيث أن فكرة التكريس للعذراء أو القديسين لم تكن موجودة فى القرن الرابع وبدايات القرن الخامس الميلادي.

ولتوضيح تأثير سياق ثقافة العصر على التحول فى الاستخدام الوظيفى للبازيليكا المزدوجة يجدر بنا تناول موضوع تقديس الشهداء[21] وآثارهم وتكريس بناء كنائس بأسمائهم.

سطر الشهداء تاريخهم بإيمانهم وتضحياتهم ودمائهم، فارتفعت مكانتهم وحظوا بالتبجيل وتخلد ذكرهم. وقبل السلام مع الكنيسة كان الاحتفاء بذكرى الشهداء وتبجيلهم يتم حول قبورهم مرتبطًا بتاريخ ذكرى استشهادهم. وأحيانًا تميز قبورهم بتكوينات تذكارية خاصة وقد تكون لها صفة معمارية مثل مصلى صغير أو زاوية memoria وهى تعكس تأثير قديم "وثنى" لتقديس وعبادة الموتى خاصة الصالحين منهم.

وأصبح فى الغرب ومع نهاية القرن 3م هناك تقويم ثابت للاحتفال بالشهداء مشتملًا على الشهداء المحليين وعظام الشهداء والرسل على مستوى العالم المسيحى، وظل هذا التقويم مادة للإضافة والتوسع مع الوقت. وبعد السلام مع الكنيسة تحولت الزوايا التذكارية الرمزية الصغيرة عند مواقع قبور الشهداء إلى كنائس كبيرة وجديدة.

وتطور الاحتفال بمواقع القبور، وعلى الرغم من أن الاحتفال بالشهداء كان عملا تطوعيًا إلا أنه اكتسب شعبية كبيرة. وانعكس ذلك تناقل سير الشهداء وتعاظم قدرهم فى نفوس المسيحين إلى الاعتقاد بقوة الشهداء، فزادة الرغبة فى زيارة قبورهم والحج إليها والتبرك بها، بل وزاد الإقبال فى الرغبة فى الدفن بجوارهم أو بالقرب منهم.

[20] -Menis, "La Basilica doppia", 123-133.

[21] - تناولت Henricks نشأة وتطور تقديس الشهداء وآثارهم المقدسة، للاستزادة انظر، Henricks, 241-257.

ونتيجة الإقبال الشديد على هذه المواقع والتى اكتسبت قدسية خاصة تبللور مفهوم تقديس الشهداء؛ وكان الاهتمام فى بداية المر مقتصرًا على مقر دفنهم حيث عظامهم ورفاتهم، ثم تطور الأمر فزاد الاهتمام واتسعت دائرته ليشمل كل ما هو ذا صلة بهم ليشمل تذكارات، ملابس بها آثار من دمائهم، أى آثار أو بقايا من أدوات استشهادهم، وحاجياتهم الخاصة أو تلك التى قد يكونوا استخدموها أو لمسوها فى حياتهم أو عند استشهادهم. وفى هذا السياق أخذت آثار المسيح عليه السلام أهمية خاصة، وكذلك الرسل تلاميذ المسيح عليه السلام، والشخصيات التاريخية التى ارتبطت بحياة المسيح.

وبخصوص دفن الشهداء فثمة اختلاف فى الممارسات بين الشرق والغرب، فنجد فى الغرب قام التقليد الرومانى بحظر التلاعب بالقبور كان عاملًا مباشرًا على منع نقل الرفات او الدخائر المقدسة، وهو الأمر الذى استمر حتى القرن 6م، وأدى ذلك إلى إنشاء المزارات فوق القبور عند الجبانات أو المقابر ، والصالات (البازيليكا) الجنائزية خارج أسوار المدن كما هو الحال فى روما فترة القرنين الرابع والخامس.

أما فى الشرق فقد تطورت عادة نقل الذخائر المقدسة، فيمثل نقل رفات القديس بابيلاس أقدم مثال موثق حيث نقل إلى ذافنى (واحدة من مناطق أنطاكية) بين سنوات 351–354م، وبعد ذلك بسنوات قليلة 356–357م تم نقل ذخائر القديسين أندراوس، وتوما ولوقا إلى كنيسة الرسل المقدسة بالقسطنطينية؛ وهو الأمر الذى أدى لانتشار هذا التقليد فى نقل خائر القديسين، بل وتطور الأمر إلى فصلها وتوزيعها بشكل أوسع حتى حرصت كل كنيسة تقريبًا على أن تضم جزءًا من الذخائر المقدسة لأحد الشهداء أو القديسين[22].

وفى الغرب انعكس ذلك الاهتمام المتزايد على كنائس أو أضرحة الشهداء (القريبة من المقابر خارج أسوار المدن) فى المقابل على إهمال الكنائس والمراكز الكنسية داخل المدن؛ مما جعل الكنائس الغربية تضطر فى نهاية الأمر للقبول بفكرة نقل رفات وآثار الشهداء المقدسة للكنائس داخل المدن، حتى تجذب الناس إليها، وكان ذلك بصورة رئيسية فى القرن الخامس الميلادى.

الخاتمة

يمكن تفسير وظيفية الكنائس المزدوجة بصفة عامة، كون واحدة تستخدم ككنيسة شهيد Martyrium أو مكرسة للعذراء، كمكان أو موقع مقدس يحج إليه المسيحيون. وهذا التفسير مقبول على الكنائس–المزدوجة خاصة المؤرخة من القرنين الخامس والسادس.

وعن الاستخدامات الوظيفية الأخرى والتى ارتبطت بصورة أكبر بالكنائس المتأخرة نجد الاستخدام الموسمى (الصيف والشتاء) كما فى كنائس لومبارديا.[23] ومثل هذا الاستخدام يتطلب عاملين يتباين على أساسهما اختلاف الاستخدام بين كل من البنائين؛ أولًا: المساحة بحيث يكون البناء المستخدم فى الشتاء

[22] - مانجو، العمارة البيزنطية، 44.

[23] - Menis, "La Basilica doppia", 129-133.

أصغر مساحة ليسهل تدفئته، والثاني: التوجيه بحيث يوجه البناء الأصغر مساحة باتجاه الجنوب، بينما يوجه البناء الصيفي وهو الأكبر مساحة باتجاه الشمال. ومثل هذه الأبنية يمكن تتبعها فى العمارة الكلاسيكية وفى العمارة المسيحية المبكرة على السواء.

وهناك كنائس بازيليكية مزدوجة نتيجة إضافة كنيسة ثانية لكنيسة باقية بالفعل فى موقع أسقفي،[24] مثل الكنائس المزدوجة فى فرنسا باستثناء كنيسة تريير،[25] والتى تناول فيها الكنائس البازيليكية المزدوجة كمدخل لدراسة العمارة المورفينيجية.[26]

وجدير بالذكر أن يؤخذ بعين الاعتبار أنه رغم توحد المعتقد والمذهب "عالمية" المسيحية فى الفترة المتزامنة مع العمارة المسيحية المبكرة خاصة القرن الرابع الميلادى وبداية القرن الخامس؛ كانت هناك حلول معمارية مختلفة لمعالجة الاحتياجات الطقسية والاحتفالات منبثقة من اختلاف الموروث المحلى، ومستجدات السياق الثقافى والدينى بصفة رئيسية. وأيضًا قد يستعار شكل معمارى ما لكن يستخدم لأغراض وظيفية مختلفة بحسب رؤية المستخدم الجديد لمدى توائمها واحتياجاته.

[24] Hubert, *L'Art Preromane*.
فى ضوء عقده لمقارنة بين الكنائس البازيليكية المزدوجة فى كل من شمال وجنوب أوربا، يذكر أن الكنائس المزدوجة الإيطالية بنيت من الأساس كوحدة معمارية واحدة على العكس من الكنائس المزدوجة فى فرنسا (باستثناء كنيسة تريير Trier) حيث أضيفت كنيسة ثانية لكنيسة باقية بالفعل فى موقع أسقفي. وأن الكنائس الإيطالية مبكرة فى تاريخها عن الفرنسية. وأضاف عدد من الكنائس لقائمة الكنائس البازيليكية المزدوجة.

[25] Hubert, ″Les cathédrales doubles de la Gaule″, 105-125, 8 fig.

[26] - العمارة المورفينجية "Merovingian Architecture" هو الفن والعمارة فى عهد الأسرة المورفينجية والتى حكمت فرنسا ودول البنلوكس (أو بلاد الأراضي المنخفضة هولندا وبلجيكا ولوكسمبورغ) وجزء من ألمانيا فى الفترة من القرن 5م وحتى ق 8م.

قائمة المصادر والمراجع

- أمين، أحمد. *العمارة المسيحية المبكرة*، سلسلة كراسات قبطية، العدد الخامس، برنامج الدراسات القبطية، مكتبة الإسكندرية، 2015.
- مانجو، سيريل، *العمارة البيزنطية*، ترجمة: رندة فؤاد قاقيش، دمشق 1999م.
- Aravecchia, Nicola, Christians of the Western Desert in Late Antiquity: The Fourth-Century Church Complex of Ain el-Gedida, Upper Egypt, PhD diss., University of Minnesota, June 2009.
- Bayoumi, Kamel A., "Excavations at 'Ain al Gadida in the Dakhleh Oasis", in: *Life on the Fringe. Living in the Southern Egyptian Deserts during the Roman and Early-Byzantine Periods*, Proceedings of a Colloquium Held on the Occasion of the 25th Anniversary of the Netherlands Institute for Archaeology and Arabic Studies in Cairo 9-12 December 1996, Olaf E. Kaper, ed., (Leiden, 1998), 55-62.
- Bertacchi, Luisa, "Note Sulla unita construttiva dell' aula Teodoriana nord nel Complesso Culturale di Aquileia", *Aquileia Nostra 48* (1977): 237-256.
- Fevrier, P. A., "Le development Urbain in Afrique du nord", *Cahiers Archeologiques 14* (1964): 1-47.
- Henricks, Karen Ilene Peterson, The Early Christian double-basilica, PhD. diss., University of Missouri - Columbia, Dec. 1989.
- Hubert, Jean, ″Les cathédrales doubles de la Gaule″, dans Mélanges d'histoire et d'archéologie offerts en hommage à M. Louis Blondel*, Genava, nouv. série, t.XI* (1963), 105-125.
- Kempf, Teodor Konrad, "Ecclesia Cathedralis eo quod ex duabus ecclesiis Perficitur", *Art del I Millenio*, 3-10.
- Krautheimer, R. "The Twin Cathedral at Pavia", Joachim Gaehde, trans., in: *Studies in Early Christian Medieval and Renaissance Art*, New York University Press, 1969, 161-180.
- Krautheimer, R., "The Constantinian Basilica", *Dumbarton Oaks Papers*, vol. 21 (1967), 115-140.
- Krautheimer, R., *Early Christian and Byzantine architecture*, England, 1986.
- Lehmann, Edgar, "Die frühchristlichen Kirchenfamilien der Bischofssitze im deutschen Raum, und ihre Wandlung während des Frühmittelalters", *Beiträge zur Kunstgeschichte und Archäologie des Frühmittelalters: Akten zum VII. Internationalen Kongress für Frühmittelalter forschung*, 1958, 88-99.
- Lehmann, Edgar, "Von Der Kirchenfamilie zur Kathedrale", *Festschrift Friedrich Gerke* (Baden-Baden: Holle-Verlag, 1962), 21-37.
- Mango, Cyril, *Byzantine Architecture*, London 1976**.**
- Menis, Gian Carlo, "La Basilica doppia", in: *Rivista di archeologia cristiana*, vol. 40 (1964), 123-133.
- Schumacher, W. N., "Die 'Opferprozession' in Aquileia", in: *Akten des VII. Internationalen Kongresses für Christliche Archäologie*, Città del Vaticano : Pont. Ist. di Archeologia Cristiana, 1969, 683-694.
- Tamaro, Bruna, F., "Ricerche sull'aula Teodoriana nord e sui battisteri di Aquileia", *Aquileia Nostra 34* (1963): 97-98.
- Zovatto, Paolo Lino, "Il Significato della basilica doppia. L'Esempio di Aquileia", in: *Rivista di storia della Chiesa in Italia*, vol. 18 (1964): 357-398.
- Γκιολές, Ν., *Παλαιοχριστιανική τέχνη Ναοδομία π.200-600*, Αθήνα, 1998.